الصـمت

خيم على المكان سكون مبهم .. غريب . لا أحد ينبس بكلمة، إنها المرة الوحيدةالتى جثم فيها الصمت على صدورنا، أطبق على أنفاسنا، كدنا نختنق، لا أحد يقوى على نهره .. جميعنا نجلس مختلفي الأوضاع بلا حراك. استطاع صوت عمي الواهن - فجأة - تمزيق ذلك الصمت القاتل حينما صرخ :

- آه .. ضاقت بنا الدنيا ! .

فاعتدل كل منا في جلسته، حدقنا في وجهه بإشفاق، هدانا من روعه ... لكنه همهم، ثم دفن وجهه بين كفيه دون أن يلتفت.

عاد كلٌ منا إلى جلسته .. اتكأت بظهري إلى الحائط المتهاوي، رمقته يخرج علبة السجائر من سترته .. تحسسها بأنامله، تأملها بضيق، وزفر غاضبًا، ثم كورها وألقي بها بعيدا، وهو يتمتم.

حولت بصرى صوب النافذة القديمة التي غدت محفلاً للعناكب المحتشدة بخيوطها الرقيقة المهلهلة .. اهتزت - فجأة - تلك الخيوط عندما وقعت بها حشرة ضعيفة ملتصقة كفريسة سهلة مستساغة لا حول لها ولا قوة - عبثا - تحاول الفرار، وارتفع طنينها تقاوم تلك الشباك المنسوجة .. بلا جدوى، وعلى حين غرة هاجمنا الصمت القاسي، كما عهدناه من قبل ..

التَفَتُّ إلى أمي حينما استطاعت بصوتها المشروخ أن تقهره، وهى تخطط بعصا فوق الأرض قائلة لعمي:

- أهو زميلك سافر برة تاني!.

فأجابها دون أن ينظر إليها:

- أرزاق ..!!.

فنكست رأسها إلى الأرض، وعادت تخطط بالعصا مرة أخرى مغمغمة:

- ناس معاها، وناس معهاش .. أحوال!.

حلَّقَ نفس الصمت الطاغي .. عجبت من جبروت ذلك السكون .. بين الفترة والأخرى نصبح كأصنام منحوتة كُلٌ على هيئته !!...

انقشعت سحابة السكون عندما صاح أخي الصغير – جائعا - فشزرته أمى بعينيها، ثم حوَّلت بصرها إلى الفرن الطيني الضخم، وأشارت بإصبعها السبابة

- دون أن تتفوه بكلمة - إلى أختى إشارة، على إثرها هرولت أختي إلى الفرن، ومدت يدها، فأخرجت قطعة من الخبز اليابس، بللتها بالماء، ثم جلست إلى جواره تمضغ له ، وتؤكله حتى غلبه النعاس ... تلاشى صراخه شيئًا فشيئًا، فرجع ذلك الصمت مرة أخرى .. ضاق صدرى .. لا أسمع شيئا سوى الأنفاس المتهدجة ، والزفرات الساخطة .. لا يصل إلى آذاننا سواها، ممزوجة بأنين أخي الملقى على الأرض، وطنين الحشرة المتقطع التي مازالت تناضل .. ألقيت ببصري نحو الحائط ، فرأيت اللوحة الورقية ، قرأتها بصوتي الذي لم أسمعه (ربنا موجود).

نظر عمي إلى حيث أنظر، ثم قال متنهدا:

- يا رب !

رددنا خلفه .. يارب ..
حولت بصري إلى نتيجة التقويم السنوي .. أكثر من سبعة أشهر، ووالدي لم يذكرنا حتى ولو بخطاب واحد .. تأملت النافذة .. الخيوط الداكنة تهتز، ولا تزال الحشرة تقاوم بالرغم من مصيرها المحتوم.
هززت رأسي، فسقط بصري على أخي المريض ملتفًا بالملاءة الباهتة .. تذكرت قول الطبيب:
- ده لازم يتغذى كويس .
عندها قلت لأمي:
- يقصد بذلك اللحمة ..
قاطعتني، وهي تسعل:
- ربنا يغذيه.
انتصب عمي واقفًا، وهو يتمتم، ثم وقف فى عقر البيت، تحت السقف المليء بالثقوب، من ثقب متسع نظر إلى السماء .. صمت قليلا ، ثم قال في خنوع:
- يا رب، إنك تقضي ولا يُقْضَى عليك.
اغرورقت عيناه بالدموع، ثم رفع يديه خاشعًا:
- هنعمل إيه أكتر من كده .. ؟!
تأوه ثم انتحى جانبًا، وأجهش بالبكاء.
لم يمض وقت طويل حتى طاف بنا ذلك الصمت ثانيةً، وكأنه يعلو ويهبط .. لكنه طال هذه المرة .. طال حتى أن أحدا لم يجرؤ على خرقه.. سكون غامض ، وقوى ..مصمصة أختي، وحوقلة عمى، وتمتمة أمي، وأنين أخي، وهزات رأسي المتتابعة في شيء من الصوت .. كل ذلك لم يتمكن من دفعه أو زحزحته .. لم يستطع أحدٌ منا تمزيقه .. طغى على كل شيء، وتسلل إلى كل ركن، حتى هديل حمامة نربيها بلا عائد لم أعد أسمعه!
اندثر - فجأة - حين تتابع قرع الباب بشدة حتى كادت تتطاير جنباته ..
هرولت لأرى مَنْ ذلك! ..
من ذلك الذى جاء دوره ليمزق هذا الصمت المنسوج، ويشتت ذلك السكون المخيم فوقنا؟!
وقبلما أفتح الباب جاءني صوت رجل يلهث، أعرفه جيدا، إنه **"أبو الفتوح"** .. رجل طيب كان صديقًا لعمي ، وأنيسًا له في غربته.
فتحت الباب، فرأيت وجهه متهللا رغم لهاثه .. ورغم لهاثه أيضًا صرخ في وجهي:
- قول لعمك مبروك حوالات الحرب وصلت.
ابتسمت، الكل هب واقفا، نظرنا إلى عمي، فوجدناه مغشيًا عليه .. وحين ألقيت ببصري إلى النافذة لم أجد الحشرة !! .